بهو السباع

بقصر الحمراء بغرناطة

دكتور جمال محرز

بهو السباع أحد أبهاء قصر الحمراء القائم فوق جبل السبيكة مشرفاً على مدينة غرناطة ، اكتسب اسمه من تلك النافورة بوسط فناء هذا البهو ، وذاع صيته بسببها وطبقت شهرته الآفاق .

وهو آية من آيات العمارة الإسلامية ، والواقع أن قصر الحمراء جميعه من أجمل الآثار الإسلامية ليس فى الأندلس فحسب بل وفى العالم الإسلامى أجمع ولقد شاءت الظروف أن يظل هـذا القصر سليماً لم يلحقه التدمير الذى أصاب المعالم الإسلامية بالأندلس عقب استرداد المدن الأندلسية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى اتخاذه مسكناً للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابلا عقب سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ فى يدهما .

والحق أن الزائر لهذا البهو ليأخذه العجب ويحار فى أمره فبأى شىء يعجب ، أبحسن التخطيط وتنسيقه أم برشاقة الأعمدة والعقود المقربصة كأنها خلايا النحل أم بفن الزخارف ووفرتها وتنوعها وكأنها الدنتلا فالواقع أن المشاهد لهذا كله تكاد روعة المنظر تملك عليه أنفاسه .

ويحسن بنا قبل أن نتكلم عن هـذا البهو أن نذكر كلمة عن تاريخه وما أصابه به الزمن وما حدث له من إصلاحات وترميمات .

ولعل أقدم إشارة وصلت إلينا عن هذا البهو هو ذلك الوصف الذى يرجع إلى عام ١٥٠٢م أى بعد أربع سنوات من سقوط غرناطة فى أيدى الأسبان وقد ورد فى هذه الإشارة أن أرضية الفناء كانت مغطاة برخام وأنه كان به أشجار من أشجار البرتقال وأن الأروقة كانت مكسوة بالرخام أيضاً ، كما تذكر أن عدد الأعمدة ٢٥٠ عاموداً .

وتدل وثيقة موجودة فى أرشيف قصر الحمراء ترجع إلى عام ١٥٥٢م على أن القباب الخارجية التى كانت تغطى الكشكين قد هدمتا وقاية للقباب الداخلية من التلف وحماية لها من الدمار كما تذكر الوثيقة أيضاً أن السقف قد أصلح ونزع الحائر القديم (الرفرف) وذلك عند إصلاح الجص .

هذا وقد أصاب قصر الحمراء تلف كبير عام ١٩٥١م وبخاصة القاعة الملاصقة لبهو الرياحين أو البركة كما يسمى أحياناً وكذلك قاعة بنى سراج نتيجة حريق من إنفجار ذخيرة .

وقد تناولت يد الإصلاح هذا البهو عام ١٥٩٥م واستمرت حتى عام ١٦٦١م فغطيت قباب كثيرة وأصلح القرميد الأبيض اللون والأخضر الذى كان لا يزال يغطيها . كما نزعت أرضية قديمة بداخل وخارج الممر مكونة من قطع صغيرة من الحجر والزليج وكذلك أصلح الجص .

والظاهر أن الرخام الذى كان يكسو الأرضية قد نزع فى القرن السابع عشر الميلادى ويستدل على ذلك من إشارة ترجع إلى عام ١٦٤٠م . إذ تقول إن فسيفساء البهو كلها قد نزعت وأجريت إصلاحات متعددة بهذا البهو خلال عام ١٧٠٨م ، ١٨٣٨م ، ١٨٧٨م ، غير أن إصلاحات العام الأخير بالرغم من كثرتها جاءت ثقيلة الظل بغيضة إلى النفس رديئة الصنع الأمر الذى أدى إلى تشويه الأصل تشويهاً كبيراً .

وفى عام ١٩٢٩م نزع الملاط الذى يغطى جدران الممرات فظهرت الرسوم المفتعلة البعيدة عن الأصل التى قام بعملها مرممو القرن الماضى كما ظهرت أيضاً أجزاء من الشريط الجصى القديم المكون من دوائر ومربعات بها كتابات نسخية كان فى مكان السفل المصنوع من الزليج . كما فتحت النوافذ التى تضىء الممرات وكانت قد سدت خلال الأعمال التى تمت عام ١٧٠٨ م ، وأعيد تغطية أرضية الممرات بالرخام على النحو الذى كانت عليه فى عام ١٥٠٢ م . وفى عام ١٩٣٤م نزعت القبة ذات القرميد المزجج التى بنيت عام ١٨٥٩ م وحل محلها غطاء هرمى الشكل .

وزائر هذا البهو يصل إليه من باب صغير مفتوح فى الجدار الفاصل بينه وبين بهو الرياحين أو البركة الذى كان المقر الرسمى لسلاطين بنى الأحمر حيث كانت تقام حفلات الاستقبال فى قاعة السفراء ببرج قمارش المطل على الفناء المحتوى على بركة مستطيلة محاطة بشجر الريحان .

وبعبور هذا الباب نجد أمامنا بهو السباع وهو القصر الخاص بسكنى السلاطين شيده السلطان محمد الخامس (١٣٥٤ — ١٣٥٨م ، ١٣٦١ — ١٣٩١م) كما تدل على

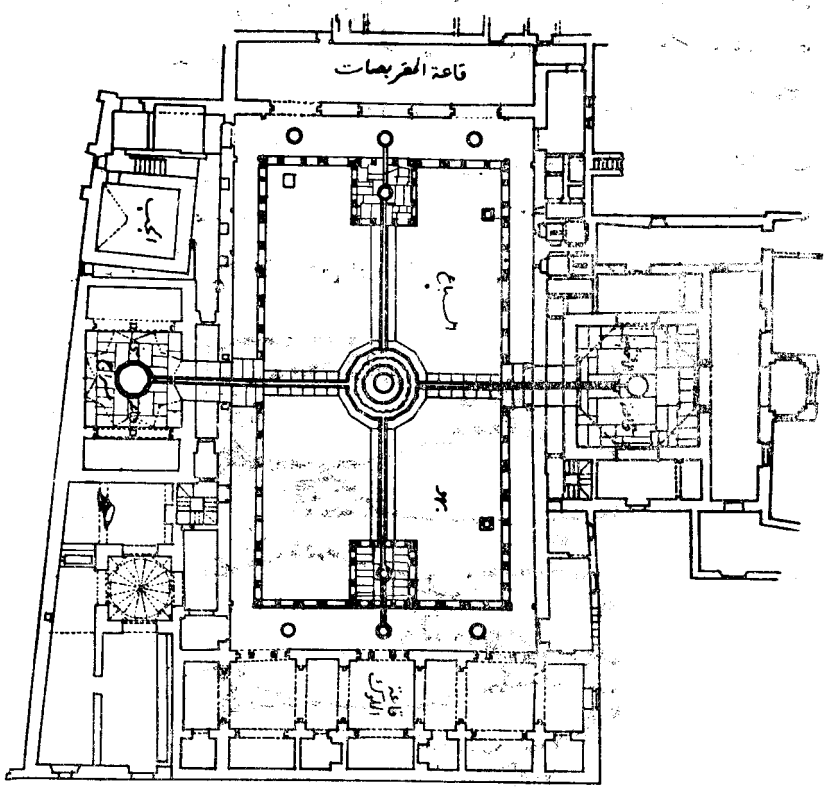

شكل ١ — تخطيط بهو السباع

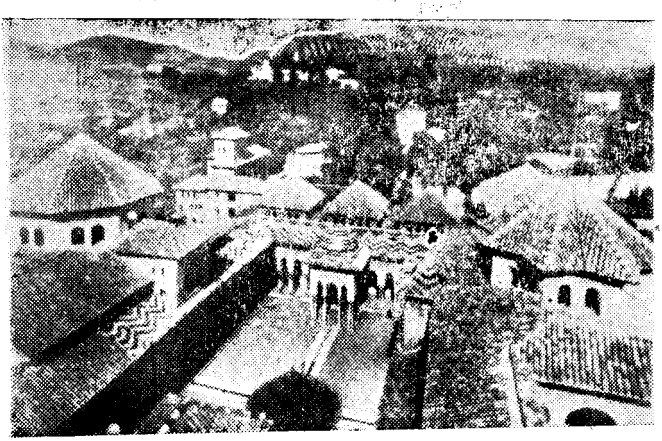

شكل ٢ — بهو السباع [منظر مأخوذ من فوق قصر شارل الخامس]

ذلك النقوش الكتابية التى تزين الجدران . وهو عبارة عن فناء يحيط به ممر ومن خلف القاعات والحجرات . شكل ١ ، شكل ٢ . أما الفناء فمستطيل الشكل تبلغ أبعاده ١٢٦ × ٧٣ × ٢٢,٥ قدماً وتتوسطه تلك النافورة التى طبقت شهرتها الآفاق ألا وهى نافورة السباع ، وهـذه النافورة (شكل ٣) عبارة عن قصعة كبيرة من الرخام قطرها ١٠,٥ قدماً وعمقها قدمان ويدور حول حافتها العليا من الخارج نقش عربى عبارة عن أبيات من الشعر من قول ابن زمرك الشاعر الوزير فيقول :

شكل ٣ — جزء من نافورة بهو السباع

تبارك من أعطى الإمام محمداً ... مغانى زانت بالجمـــال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدايع ... أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها ... تحلى بمرفض الجمـان النواعيا
يذوب لجين سال من جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشـابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أياً منهمـا كان جاريا
ألم تر أن المـاء يجرى بصفحها ... ولـكنهـــا مدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغض ذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غير غمامة تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ عدت تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهى روابض عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فأسلم مخلداً تجدد أعيـــاداً وتبلى أعاديا

ويحمل هذه القصعة إثنا عشر أسداً ارتفاع كل واحد منها ٢,٥ قدماً تمج الماء من أفواهها حيث تنساب فى قنوات تصل إلى نافورتين إحداها بغرفة ابن سراج والأخرى بغرفة الأختين كما تصل أيضاً إلى نافورتين أسفل الكشكين بكل كشك نافورة وهى من الرخام أيضاً .

ويصل الماء إلى قصر الحمراء من نهر حدرة وهو عمل هندسى رائع يدل على براعة المهندسين المسلمين إذ استطاعوا أن يرفعوا الماء من أسفل الجبل إلى قمته فأحالوا تلك المنطقة إلى جنة خضراء وارفة الظلال .

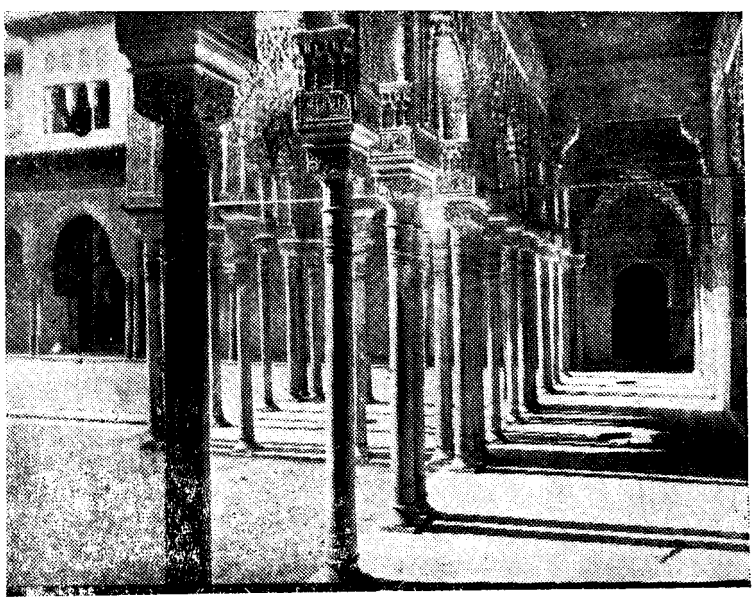

شكل ٤ — بهو السباع وواجهة حجرة مبنى سراج ومن فوقها غرف السكن

ويحيط بالبناء أعمدة تبلغ ١٢٤ عموداً موزعة حوله فرادى أو مثنى أو ثلاث أو رباع (شكل ٤) وهى من الرخام الأبيض الوارد من إقليم المرية ويبلغ طول العمود الواحد ١٠ أقدام وتمتاز برشاقتها وأن لها حلقات بالقرب من تيجانها المخروطية الشكل من أسفل والمكعبة من أعلا ، وزخارفها جامدة بالقياس إلى باقى أجزاء الحمراء ونقرأ أحياناً فوق تيجانها عبارة « ولا غالب إلا الله » شعار بنى الأحمر الذى تجده فى مختلف أنحاء القصر ويحتمل أن أصل هذا التاج من شمال أفريقية حيث نجد ما يماثل صفاته الأساسية فى عمائر عصر الموحدين . ويعلو التاج طبلية من رخام أبيض تقوم بمثابة قاعدة لدعامة من الطوب تستخدم مسنداً للأربطة الخشبية الأفقية التى تربط الأعمدة بعضها إلى بعض . وتغطى هذه الأربطة بالجص والإسكايولا بحيث تكتسب شكل العقد المفصص إلا فى طرفى الضلعين الطويلين والكشكين حيث تحل المقربصات محل العقد المفصص ، ومما أكسب هذا البهو أصالة استخدام الأعمدة محل الأكتاف فى حمل العقود وهى هنا غير متساوية فيما بينها مما يضفى صفة التنوع لأشكالها فمثلا نجد بمنتصف كل من الضلعين الكبيرين عقداً كبيراً مستديراً أما باقى العقود فهى دائرية مفصصة غنية بزخارفها الجصية (شكل ٥) .

ومن صفات الأصالة أيضاً بهذا الفناء بروز كشكين بالضلعين إلى الفناء كشك بكل ضلع . ارتفاع الواحد منهما ٢٩ قدماً ويتكون من ١٢ عقداً من المقربصات يحملها ٢٠ عموداً ذوات تيجان مزينة بنقوش كتابية ومزخرفة بالجص المخرم كأنه الدنتلا . وقبة الكشك نصف كروية ومزخرفة بمشابكات من نجوم وأشكال متعددة الأضلاع بشكل يدل على بلوغ النجارين الغرناطيين القمة فى الإتقان ويذكر أحد الأساتذة الأسبان أن ثمة شرفات كانت لهذين الكشكين تشابه شرفات جامع السلطان حسن بالقاهرة .

ومن خلف هذين الكشكين والأعمدة المقامة حول الفناء ممر عرضه ٧٫٥ قدماً ويدور حول الفناء وعن ارتفاع واحد كورنيش من الخشب المزخرف الذى يحمل الحائر (الزفرف) الطائر المحمول على كوابيل مزخرفة .

وقد جاء فى وصف الرحالة الذين زاروا قصر الحمراء ما يفيد بأن ثمة أشجار برتقال كانت مزروعة بالفناء وأن الأشجار النباتية المتسلقة التى تغطى الواجهة على

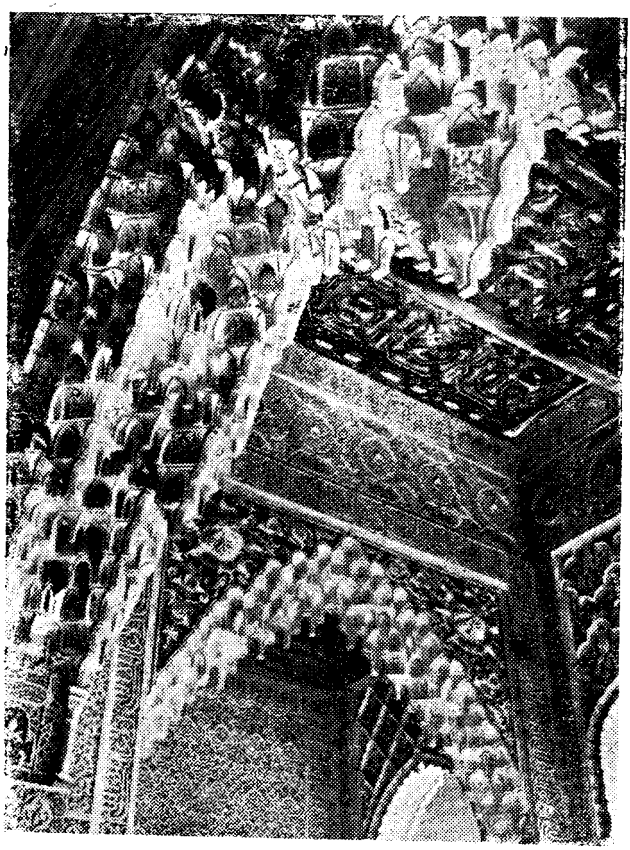

شكل ٥ — تفاصيل من العقود يبهو السباع

النمو الذى نجده فى الشرق كانت مزروعة فى بعض الزهريات. ولم يكن بالفناء حديقة وهناك من يذهب إلى أن ثمة بركة كانت موجودة بالفناء فضلا عن نافورات أخرى غير التى ذكرناها .

ونجد بعد هذا الممر المزخرفة جدرانه بالعناصر المختلفة بالجص حجرة بكل من الضلعين الكبيرين وقاعة كبيرة مفتوحة على الفناء بالضلعين القصيرين ، تسمى إحداها حجرة بنى سراج نسبة إلى بنى سراج تلك الأسرة الغرناطية التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة ونكبت كما نكبت أسرة البرامكة فى عهد هارون الرشيد . وهذه الحجرة رائعة فى زخارفها وبجدرانها بعض أبيات من نظم ابن زمرك فى دائرتين بالجهة اليمنى واليسرى نقرأ :

فتحسبها الأفلاك دارت قسيهـــا تظل عمود الصبـح إذ لاح باديا

وفى الصدر :

تبيت له خنس الثريا معيـــذة ويصبـح مثـل النواسيم رواقيا

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا

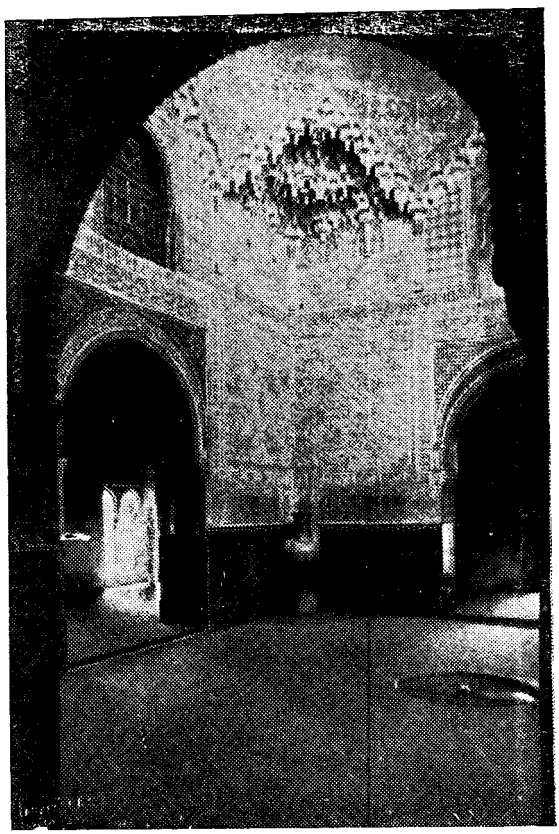

شكل ٦ — حجرة الأختين

أما حجرة الأختين (شكل ٦ ، ٧) فقد سميت بهذا الاسم لوجود لوحين من الرخام متشابهين وهى لا تقل حسناً وبهاء عن قاعة بنى سراج ويزين جدرانها بعض أبيات من قصيدة ابن زمرك بخلاف العناصر الزخرفية الأخرى فنستطيع أن نقرأ :

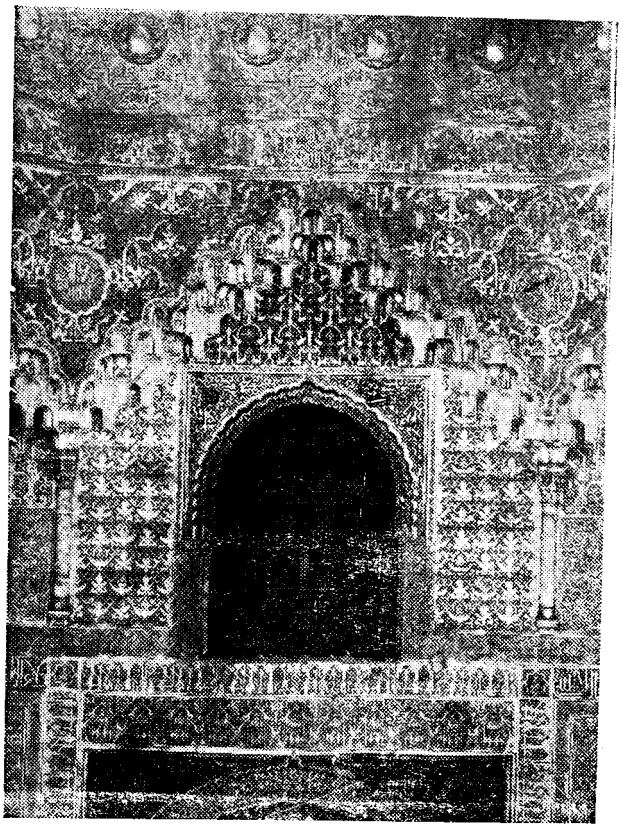

شكل ٧ — حجرة الأختين

تبيت له خنس الثريا معـــيزة ويصبـح مثـل النواسيم رواقيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمته ومن خدم الأعلى استفـاد المعاليا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمـد بالنور باتت مواليا
به المرمر المجـلد قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان راجيا

أما القاعتان بالضلعين القصيرين المفتوحتين على الفناء فتختلف كل واحدة منهما عن الأخرى من حيث التصميم وتسمى أحداهما قاعدة المقربصات والأخرى قاعة الملوك أو العدل وهى فى غاية الفخامة والأبهة وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب وجود رسم يمثل سلاطين بنى نصر حول مائدة بالجزء الأوسط من السقف وهم فى هيئتهم

يشبهون بعض رسوم المدرسة السلجوقية فى التصوير التى ازدهرت فى القرن ١٣ م بملابسهم العربية وعمائمهم وسمتهم السامية غير أن رسوم الحمراء تختلف من حيث طريقة رسمها عن أسلوب المدرسة السلجوقية إذ رسمت فوق جلد بعد تغطيته بطبقة رقيقة من الجص وهى هنا أقرب إلى صناعة جلود الكتب من اللاكيه منها إلى التصوير الإسلامى وكذلك تخالفها فى ألوانها . ولذا يظن أنها من عمل بعض الفنانين الأوربيين الذين كانوا موجودين فى غرناطة حينئذ والذين أتيحت لهم الفرصة للاطلاع على صور بعض المخطوطات العربية . ومما لا يمت بصلة إلى التصوير الاسلامى الرسوم الموجودة على جانبى رسوم الملوك ، تلك التى تمثل صور فرسان وصيد وهى ذات أسلوب أوربى واضح.

أما العناصر الزخرفية التى نشاهدها فى مختلف أنحاء هذا البهو فلا تختلف عن العناصر الزخرفية التى تزين باقى أنحاء قصر الحمراء وهى عناصر نباتية وهندسية وخطية ، فمن العناصر النباتية نشاهد الورقة اللساء والمثلثة الشكل ذات الفص الواحد ولها كأس أو بدون الكاس والورقة المتماثلة ذات الفصين وكلتاهما مأخوذتان عن زخارف عصر الموحدين وكذلك نجد الورقة المهشرة الأندلسية والمفصصة ويكثر استخدامها أكثر من السابقتين اللتين كانتا مستخدمتان فى عصر المرابطين ومما يلاحظ على الزخارف النباتية بصفة عامة أنها أقل غنى من زخارف القرن ١٢ الميلادى وأقل تنوعاً ، وتتكون العناصر الهندسية أساساً من اتصالات الأشكال المتعددة الأضلاع البسيطة ونجدها فى الخزف والزليج وأرض الغرف وبعض أجزاء من الجص وتبلغ العناصر الهندسية درجة غير عادية من التعقيد والإبداع الهندسى فى التكوينات المتشابكة ونلاحظ فيها التماثل التام والخضوع للقوانين الحسابية وهى سهلة التنفيذ معقدة المظهر. وتعد الحمراء بمثابة متحف للرسوم الهندسية المتشابكة غير أنها مملة ؛ أما النقوش الخطية فهى إما من الخط النسخى المغربى أو الكوفى وتشتمل على أدعية وتمنيات لسلاطين بنى نصر وأبيات من أشعار ابن زمرك فى وصف القصر وأجزائه وكذلك عبارة شعار بنى نصر .

هذا وتغطى الزخارف الجصية المختلفة الأنواع ما بين نباتية وهندسية وخطية وكذلك الزليج سطوح الجدران جميعها فكأنها قد اسدل عليها ستار مزخرف بمختلف أنواع الزخارف .

وقد بلغت العناصر الزخرفية فى الحمراء وفى الفن الغرناطى عموماً درجة عالية

من الإبداع والإتقان بالرغم من عدم تنوعها قياساً على القرون السابقة ولا غرو فإن الفن الغرناطى يمثل أقصى ما وصل إليه الفنانون المسلمون بالأندلس من درجات الإبداع وليس ذلك بغريب فإن غرناطة كانت المعقل الأخير أمام حركة الاسترداد الأسبانية وإليها التجأ الفارون من وجه الأسبان فتجمع بها فنانون من مختلف العواصم الإسلامية الأندلسية يلوذون بها من اضطهاد الأسبان فكان ذلك سبباً لازدهار الفنون بها إلى درجة كبيرة ، وفى وقت قصير ولذا هناك من يدعو إلى البحث عن مصدر هذه الزخارف فى قشتاله وشمال إفريقية .

وثمة ظاهرة فريدة نلاحظها ضمن هذه العناصر الزخرفية وهى عبارة عن بعض عناصر طبيعية المظهر لا تمت بصلة إلى التقاليد الإسلامية إذ تمت إلى الأسلوب الأوربى القوطى ، وكان هذا بتأثير الجوار او وجود بعض الفنانين الأوربيين بين المسلمين ، ولا يقتصر هذا على قصر الحمراء فقط بل غيره ممثلا فى بعض إنتـــاج الفن الغرناطى كالخزف ذى البريق المعدنى .

والملاحظ فى التخطيط العام لهذا البهو التماثل فى الأوضاع بالرغم مما يوجد من اختلاف بين كل وحدة وأخرى وقد ظهر تخطيط قريب الشبه من تخطيط بهو السباع فى إقليم مرثية بحصن الكاستيخو (شكل ٨) ، وقد قيل إن هذا البهو من تصميم

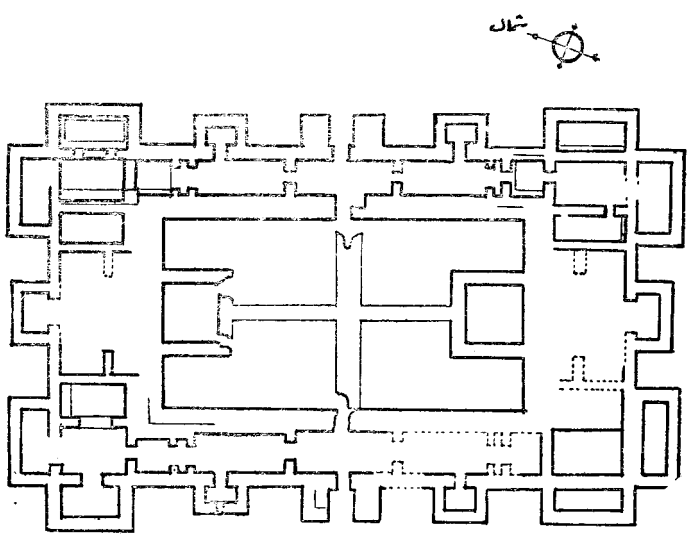

شكل ٨ — تصميم الكاستيخو بفحص مرتين

مهندس مصرى يدعى ABENCENEID وواضح شدة التحريف فى الاسم الأسبانى الأمر الذى يجعل التعرف على الاسم العربى من الصعوبة بمكان ، وهذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها اشتراك مهندس مصرى فى عمل معمارى اندلسى ، إذ سبق أن ذكر لنا المقرى اسم مهندس من أهالى الاسكندرية يسمى على بن جعفر عمل فى إنشاء مدينة الزهراء .

وهناك من يرى أن مصدر هذا التصميم القاهرة ، ولكن لما كانت أعمال الحفائر التى أجريت فى الفسطاط والمنازل التى لا تزال باقية إلى اليوم ، لم تعدنا بمثل واحد يتشابه مع بهو السباع فإننا نميل إلى القول بأن مصدر هذا البهو قد يكون بهو حصن متقودة وليس هناك ما يمنع فى هذه الحالة من أن يكون مصممه هو المهندس المصرى المشار إليه وأنه اشتق تصميمه من أمثلة موجودة بالأندلس .